

الفصل السادس

الصهيونية والعنصريات الحديثة

عندما وصفت الجمعية العامة للأمم المتحدة الصهيونية بأنها «شكل من أشكال العنصرية والتمييز العنصرى» في قرارها رقم ٣٣٧٩ (٣٠) الصادر في ١٠ نوفمبر عام ١٩٧٥ م، أصيب العالم الغربى بصدمة عنيفة؛ فالصهيونية ترمز عنده إلى عكس ذلك: إنها شكل من أشكال القومية وهى حركة التحرير الوطنية للشعب اليهودى. وقد لخص برنارد لويس، العالم البارز بشئون الشرق الأوسط، الموقف بقوله:

ليست الصهيونية حركة عنصرية فى الأساس، ولكنها شكل من أشكال القومية أو حركة تحرير وطنى بالمصطلح الحديث. وهى كغيرها من الحركات، تجمع تيارات مختلفة، بعضها تابع من العرف والضرورة، والبعض الآخر حملته لها رياح التغير والأنماط الدولية. وأهم ما فى الأولى هو الديانة اليهودية بتأكيداتها المستمر على صهيون والقدس والأرض المقدسة، وأفكار العبودية والاعتراب والعودة، وهى أفكار متداخلة معاً ومتكررة. وكان للإيمان بالمسيح المنتظر وحركات الإحياء الدينى التى ظهرت بين اليهود منذ القرن السابع عشر مساهمة مهمة فى نشوء هذه الحركة^(١).

وقد قبل برنارد لويس، كغيره من الكثيرين المدافعين عن الصهيونية، الأسطورة الصهيونية التى تكتنف إسرائيل وأيد الفكرة القائلة: «إن الصهيونية السياسية العلمانية تحقق المعتقدات الروحية اليهودية».

إن الفهم الواضح لظاهرة الصهيونية غير اليهودية بمنظورها التاريخى الكامل تمكننا

من «خلع قناع أسطورة الصهيونية» ورؤيتها على حقيقتها الأساسية، وهى أنها نتاج الفلسفات الأوروبية العنصرية والاستعمارية. لم تكن الصهيونية فى أساسها حركة يهودية متميزة، وكانت تواجه معارضة اليهود المتدينين الذين أنكروا محاولة إعطاء أبعاد جغرافية للمملكة الروحية من جهة، كما كانت تواجه من جهة أخرى معارضة من جانب اليهود الداعين للحقوق المدنية الذين كانوا يسعون إلى الخلاص الكامل وسياسات الهجرة المفتوحة.

ومع مطلع هذا القرن، كان الاستعمار الصهيونى لفلسطين جزءاً من الحركة الاستعمارية الأوروبية الكبرى، فالصهيونية - شأنها فى ذلك شأن اللاسامية والنازية والتمييز العنصرى - كانت جزءاً أساسياً من الثقافة الفكرية والسياسية الأوروبية، وذات جذور تمتد إلى أبعد من القرنين التاسع عشر والعشرين. والصهيونية بمظهرها غير اليهودى تكشف بوضوح عن الارتباط الوثيق بين الصهيونية والعنصرية واللاسامية والنازية.

الصهيونية واللاسامية والعنصرية

كان الصهيونيون الأوائل مثل هرتزل، ووايزمان يعتبرون اللاسامية وضعاً طبيعياً وردة فعل طبيعية وعقلانية من غير اليهود ضد «وضع اليهود الشاذ والسخيف فى الشتات»^(٢)، وكان أرنولد توينبى يرى أن الصهيونية غير اليهودية قد تنبع من الشعور بالذنب حول اللاسامية، وهو يربط بين الصهيونية واللاسامية بعبارات سيكولوجية^(٣). والواقع أن تاريخ الصهيونية غير اليهودية، كما رأينا، حافل بالأمثلة على أنصار الصهيونية الذين كانوا لا ساميين عن تعمد، وقد اقتبسنا فى الفصل الأول بعضاً مما قاله ماينرتزهاجن، كبير الضباط السياسيين فى فلسطين وسوريا فى هيئة أركان اللبى وأحد الصهيونيين المتحمسين، وفيما يلى مثل آخر من لا ساميته الصريحة:

إننى مشرب بعواطف لا سامية، وأتمنى لو تنفصل الصهيونية عن القومية اليهودية، ولكنها لا تستطيع ذلك. إننى أفضل قبولها على حالها على أن أرفضها لأسباب غير جوهرية^(٤).

وهو نفسه الذى قال :

إن آرائى عن الصهيونية هى آراء صهيونى متحمس ، والأسباب التى أثارته فى نفسى إعجاباً بالصهيونية كثيرة ومتنوعة ، ولكنها متأثرة بشكل رئيسى بوضع اليهود غير المرضى فى العالم ، والميل العاطفى الكبير لإعادة إيجاد جنس بعد تشرده دام ألفى عام ، والقناعة بأن الأدمغة والأموال اليهودية - إذا ما ساندتها فكرة قوية كالصهيونية - تستطيع أن تقدم الحافز نحو التنمية الصناعية التى تحتاجها فلسطين بشكل ضرورى بعد أن بقيت أرضاً بوراً منذ زمان طويل^(٥) .

وليس هذا التحالف بين اللاسامية والصهيونية قضية سيكولوجية سواء أكانت عقلانية أم لا شعورية ، فهما يعملان نظرياً وعملياً على المستوى نفسه ويكمل كل منهما الآخر ويدعمه .

وكان ماينرتز هاجن يدرك الأهمية الإستراتيجية لفلسطين :

الواقع أنه ليس من المبالغة فى شئ القول بأن فلسطين قوية وصديقة أمر حيوى للأمن الإستراتيجى للمستقبلى للكومنولث البريطانى ، ولا يمكنها أبداً أن تكون قوية وصحيحة فى ظل السيطرة المجزأة ، ولا فى ظل أى شكل من أشكال الحكم العربى^(٦) .

والارتباط بين اللاسامية والصهيونية غير اليهودية أعمق من ذلك بكثير ، وهو ليس مجرد توازن للمصالح ضد الأهواء . فقد قامت الصهيونية غير اليهودية على أساس الاحترام الرومانسى لليهود كجنس ؛ ولكن ذلك يخفى وراءه مواقف أكثر سلباً تجاه اليهود كشعب . كان الصهيونيون غير اليهود من أمثال : بلفور ، ولويد جورج ، وماينرتز هاجن يؤمنون بشدة بتفرد اليهود كجنس ، وكانت هذه الفكرة عن تفردهم هى التى جعلت الحصص النسبية للهجرة لبريطانيا (الكوتا) تأخذ شكل المطالب القومية فى فلسطين .

أما على مستوى السياسات العملية ، فقد اعتبر تيودور هرتزل اللساميين أهم الحلفاء والأصدقاء الذين يمكن الاعتماد عليهم . وبدلاً من أن يهاجم هرتزل اللسامية

ويشجبهها، أعلن أن «اللاساميين سيكونون أكثر الأصدقاء الموثوقين، وستكون الدول اللاسامية حليفة لنا»^(٧) وقد رحب باحث صهيوني آخر، هو چاكوب كلاتر كن، باللاسامية^(٨).

ونظرية تفرد الجنس اليهودي هذه هي أساس الشك العميق الذي كان يستشعره الصهيونيون اليهود وغير اليهود تجاه المتهودين كاللورد مونتاجو، ولوسين ولف، واللورد ريدنج، وسنفسح المجال لـ (ماينرتز هاجن) ليتحدث عن هذا الإحساس:

ولكن إذا كان اليهود سيحققون نفوذاً في هذه البلاد في المهن والتجارة والجامعات والمتاحف والمالية وكأصحاب للأراضي، فإن علينا طبعاً أن نعمل ضدهم، ولكن ذلك لن يكون على شكل معسكرات اعتقال^(٩).

وكانت النزعات العنصرية في فلسفة القرن التاسع عشر قائمة على الفكرة الرئيسة، وهي أن جنساً ما متفوق بشكل طبيعي على غيره من الناس. والصهيونية بسبب ادعائها أن اليهود يشكلون «الجنس المختار» الذي ينبغي ألا يذوب في الأجناس الأخرى «الأقل منه شأنًا» ليست إلا مظهرًا آخر من مظاهر هذه العنصرية.

لم تنشأ الأفكار العنصرية، بما في ذلك الصهيونية واللاسامية والنازية، من فراغ. وتطور العنصرية بأشكالها المختلفة كان متوافقاً مع ظهور الاستعمار الأوروبي وتوسعه القائم على استعمار العالم غير الأوروبي. وقد استغلت العنصرية وفلسفتها الأساسية لجعل النظام الاستعماري شرعياً، ولتقديم الدعم الأيديولوجي لعملية الاستعمار وأن «واجب الرجل الأبيض» هو أن يُحضّر الأمم «المتأخرة» غير القادرة على مساعدة نفسها.

كان الصهيونيون غير اليهود يحملون وجهة نظر عنصرية محددة عن اليهود، وكانت هذه متأصلة في أسطورة القرن التاسع عشر العنصرية الاستعمارية. كان اليهود يحظون بالاحترام كجنس مختار خارج المحيط المسيحي غير اليهودي، وكان التفوق اليهودي أمراً مسلماً به بالمقارنة مع تخلف العرب، وكان ذلك مقروناً بتعظيم الفضائل اليهودية باعتبارها نقيضاً للذائل العربية، ومما قاله ماينرتز هاجن «الذكاء فضيلة يهودية، والخداع رذيلة عربية»^(١٠). وقد وصف اليهود بأنهم «نشيطن وشجعان وحازمون

وأذكيا» ووصف العرب بأنهم «منحطون وأغبياء وخونة لا ينتجون إلا الأمور الشاذة المتأثرة بصمت ورومانسية الصحراء»^(١١).

ومع التوسع الاستعماري البريطاني في الشرق الأوسط، أصبح المواطنون العرب هدفًا محتومًا للعنصرية بسبب ديانتهم وثقافتهم ولونهم، وفوق ذلك كله بسبب معارضتهم للتدخل الأجنبي، وكان اليهود يعنون بالنسبة لفلسطين «التقدم» و«إقامة حكومة حديثة» في حين يرمز العرب إلى «الركود والفجور، والحكم المتعفن، والفساد والمجتمع الكاذب»^(١٢).

كان الصهيونيون غير اليهود يتهمون العرب باستمرار بالرجعية ويلقون مسئولية انحطاط فلسطين والشرق الأوسط على كواهلهم. وقد هيأت هذه النظرية العنصرية المسرح للاستيطان الاستعماري اليهودي في فلسطين، ويعبر ماينرتز هاجن عن ذلك بصراحة:

لن يصل العربي الفلسطيني إلى مستوى الموهبة الطبيعية اليهودية بأية حال، وسيبقى اليهودي دائمًا في القمة وهو ينوي البقاء هناك. إنه يتطلع إلى دولة يهودية ذات سيادة في فلسطين. وإلى وطن قومي حقيقي وليس إلى اتحاد فيدرالي عربي يهودي زائف. . . . إن اليهودي، مهما وهن صوته ورقط طباعه، سينجح في النهاية وسيسمع صوته. سيتهدد العربي وسيتوعد. وسيعزف آخرون في أوروبا وأمريكا مدائحها إذا ما تكسرت الأوركسترا المحلية ولكنه سيبقى حيث هو وحيث كان. . . مقيمًا في الشرق يجتر أفكارًا راكدة، ولا يرى أبعد من مبادئ محمد الضيقة^(١٣).

وكان الصهيونيون الأمريكيون غير اليهود، كما رأينا، يضمرون الأفكار نفسها والأهواء المعادية للعرب. وعلينا أن نذكر كيف أن لودج «لم يكن يحتمل أبدًا فكرة أن تكون القدس وفلسطين تحت حكم المحمديين» وأن حكم العرب لفلسطين كان يبدو «إحدى اللطخات الكبيرة على وجه الحضارة يجب أن تمحي»^(١٤). وبعث كلارك كليفورد مذكرة للرئيس ترومان بعد ذلك الوقت بعقدين من الزمان يحثه فيها على العمل الجاد لتقسيم فلسطين محذرًا من أن «الولايات المتحدة تبدو موضع سخرية وهي ترتجف أمام تهديدات قلة من القبائل الصحراوية الرحل»^(١٥). أما اليهود فقد كانوا من

ناحية أخرى قوماً يعتمد عليهم؛ لأن مجتمعهم «نتاج المغامرة الحرة» وفلسطين اليهودية «ستتجه بقوة نحو الولايات المتحدة وهي تمثل حصناً قوياً ضد الشيوعية»^(١٦).

ومع صعود نجم الصهيونية غير اليهودية، كانت مجموعة كاملة من الآراء المتحاملة على العرب تتكون في ضمير الغربيين، وقد تم إيجاد قوالب عنصرية ثقافية ثابتة لا تزال تنمو في الغرب. وكان اليهود يجسدون معظم الفضائل الغربية، وينبغي لهم أن يستوطنوا فلسطين من أجل الحضارة. ذلك أن المهمة الأولى للصهيونية هي «تحضير وتحديث فلسطين» - كقاعدة للحضارة - في مواجهة الهمجية كما أعلن هرتزل نفسه ذات مرة^(١٧).

وكان المؤمنون بالجنس اليهودي وتميزه العرقي من غير اليهود أكثر منهم بين اليهود الغربيين أنفسهم. وقد قدم اللورد أدوين صمويل مونتاجو، أبرز ممثلي اليهود الإنجليز، مذكرة لمجلس الوزراء البريطاني في أغسطس عام ١٩١٧م إبان المداولات حول وعد بلفور أكد فيها وجهة نظره أن «سياسة حكومة جلالته لا سامية في النهاية، وستثبت أنها أساس لتجمع اللساميين في كل بلد في العالم»^(١٨). وقد رفض اللورد مونتاجو بشكل قاطع الفكرة الصهيونية عن أمة يهودية متميزة وشجب الصهيونية «كعقيدة سياسية ضارة» وشكل من أشكال اللسامية، كما اتهم بشكل غير مباشر الصهيونيين البريطانيين غير اليهود (بلفور ولويد جورج واللورد ملنر ومارك سايكس وغيرهم) بأنهم لا ساميون سريون يريدون تجريد اليهود من الوضع التحرري الذي حصلوا عليه حديثاً في الحياة السياسية والمدنية في إنجلترا.

وكان الصهيونيون غير اليهود يعارضون بشكل مباشر يهود إنجلترا الذين يسعون إلى التحرر الكامل. وعلى ذلك فقد رأينا اللورد شافتسبري يهاجم قانون التحرر الكامل عام ١٨٥٨م بحجة أنه سيخرق ما يسمى بـ«المبادئ الدينية». وفي عام ١٩٠٥م ناضل بلفور من أجل إقرار قانون الغريباء الذي يحد من الهجرة اليهودية من أوروبا الشرقية بسبب «الولايات الأكيدة التي أصابت البلاد نتيجة هجرة كانت يهودية في معظمها»^(١٩)، وقد تعرض بلفور - والذي اعتبر بعد ١٢ عاماً صهيونياً عظيماً - لهجوم في المؤتمر الصهيوني السابع بسبب اللسامية المكشوفة في سياسته المعادية للهجرة اليهودية، واتهمه المندوب الإنجليزي للمؤتمر م. شاير بـ«اللاسامية الصريحة ضد الشعب اليهودي كله»^(٢٠).

وكان لويد جورج كذلك معروفاً ببيوله المختلطة حول دور اليهود في إنجلترا، فقد كانت بعض خطبه في البرلمان حول جنوب إفريقيا مثلاً تصطبغ بلا ساميته اللفظة «حين أبدى في النقاش الذى دار فى البرلمان عام ١٤٠٩م حول عرض شرق إفريقيا على الصهيونيين سخريته من اليهود»^(٢١)، وقد خاطب زميله اليهودى فى الحزب السير ألفرد موند بأنه عضو آخر من جنسه سيئ السمعة^(٢٢)، وقد لاحظ رئيس الوزراء «أسكويث - Asquith» موقفه المزدوج المتلون من اليهود عندما كان وزيراً للذخيرة، ووصفه فى مذكراته بأنه الوحيد المؤيد لمذكرة هربرت صمويل عن مستقبل فلسطين الذى لا داعى للقول بأنه لا يكثر شر نقيير باليهود أو ماضيهم أو مستقبلهم^(٢٣).

وكانت اللاسامية كذلك أحد العوامل التى اجتذبت مارك سايكس للصهيونية، فقد كان نفوره من اليهود «يتجلى فى شكه فى الصهيونية فى بادئ الأمر، ولكن ما إن وقف على المعنى الحقيقى للصهيونية حتى بدأ ينظر إليها - وهو المؤمن بالقومية والاستعمار والمتحمس لهما - فى ضوء مختلف^(٢٤)، وكان من نتيجة التمجيد الصهيونى «للعبرى الحقيقى» بالمقارنة مع «اليهودى المتأنجلز» أن تقبل هذه الأيديولوجية الجديدة. ولم يكن يحمل حباً لليهودى الهجين «كغيره من الصهيونيين غير اليهود، وكان يفضل عليه اليهودى الذى يؤكد تميزه العرقى كوايزمان»^(٢٥)، ويظهر إحساسه القومى المستقل باعتزاز. ولم يبدأ مارك سايكس يعمل من أجل هدف الصهيونية فى فلسطين إلا بعد أن تعرف شخصياً على الزعيم الصهيونى اليهودى.

وترادف الصهيونية واللاسامية يعلل كذلك الآراء المتناقضة عن الكولونيل هاوس مستشار وودرو ولسن، فقد هلل له بعض الصهيونيين باعتباره صديقاً للصهيونية، والقوة الدافعة لسياسات الرئيس ولسن الصهيونية، بينما اتهمه آخرون بأنه كان يعمل ضد الصهيونية بسبب آرائه اللاسامية المكشوفة^(٢٦)، والتى تكشف فى مراسلاته مع ولسن. وعندما انقلب هتلر ضد اليهود فى ألمانيا فى الثلاثينيات، قال هاوس للسفير الأمريكى فى برلين: «إنهم (النازيون) على خطأ، بل إنهم رهيبيون، ولكن يجب ألا يسمح لليهود بالسيطرة على الحياة الاقتصادية والفكرية فى برلين كما كانت حالهم لفترة طويلة»^(٢٧).

الصهيونية والنازية

قويت الرابطة بين الصهيونية واللاسامية كذلك بين الصهيونية والنازية، فقد كان آباء النازية السياسيون والأيدولوجيون يشاركون الصهيونيين مفهومهم العنصرى، ففكرة «الجنس المختار» عند النازية لم تكن تختلف عن فكرة «الجنس المختار» عند الصهيونية إلا فى هوية هذا الجنس: هل هو الجنس الآرى أو اليهودى؟! . ولم يكن الصهيونيون اليهود وغير اليهود يستشعرون أية كراهية للنازية وسياساتها وممارستها اللاسامية. وقد طلب وايزمان ذات مرة من ريتشارد ماينرتز هاجن أن يوضح الصهيونية ومضامينها لهتلر الذى كان يعتقد أنه «غير معاد للصهيونية»^(٢٨). وكان «ماينرتز هاجن» نفسه أكثر ما يكون تفهماً للاسامية النازية فقد كتب:

إن وجهة نظرى الخاصة أن للألماني الحق الكامل فى أن يعامل اليهودى كأجنبى وينكر عليه المواطنة الألمانية. إن له الحق حتى فى طرده من ألمانيا، ولكن ذلك يجب أن يتم برفق وعدل... إن اليهود يعاملون الآن فى ألمانيا كغرباء كما هم فى الواقع غرباء من حيث الجنس والتقاليد، والثقافة والدين^(٢٩).

وكان وايزمان، حسب رأى ماينرتز هاجن، يفضل «أن يهلك اليهود الألمان جميعاً على أن يرى فلسطين وقد ضاعت»^(٣٠). وقد كلف وايزمان ماينرتز هاجن بأن يعقد صفقة مع النازيين تساعد اليهود الألمان على الهجرة إلى فلسطين.

وتبرز الدراسات الحديثة حول التعاون النازى الصهيونى تماثل مصالح الطرفين^(٣١)، ولا يهمننا فى دراستنا هذه علاقاتهما التقنية المشتركة، فقد عولجت بشكل موسع فى مكان آخر^(٣٢). ولكن جوهر هذه العلاقة النازية الصهيونية يشير بوضوح إلى طبيعة الصهيونية العنصرية. لقد كانت الصهيونية ترى أن النازيين مؤهلون للانضمام إلى صفوف الصهيونيين غير اليهود، وكانت النازية - بعنصريتها اللاسامية - هى التى جعلت المشروع الصهيونى أمراً ممكنًا فى فلسطين عام ١٩٤٨ م.

لم تكن فلسطين اليهودية قبل أن يظهر هتلر على المسرح السياسى الأوروبى أكثر من مشروع مستوطنة صغيرة تضم أقل من ٢٠٠ ألف يهودى، يعتمد معظمهم على الأموال الصهيونية التى تجمع من خلال «الشتات». وفى عام ١٩٢٧ م، كانت الهجرة

اليهودية من فلسطين تفوق الهجرة إليها، ولم يكن اليهود يملكون عام ١٩٣٤م إلا ٥٪ من أراضي فلسطين. وبينما كان غير اليهود يصفون فلسطين بأنها «أرض اللبن والعسل» فإن فكرة الهجرة إلى «أرض جرداء» في الشرق لم تكن تستهوي يهود العالم كثيراً. ورغم الاضطهادات اللاسامية العنيفة، فإن غالبية اليهود كانت تفضل البحث عن ملاذ لها في الولايات المتحدة أو إنجلترا، ولكن قوانين الهجرة المقيدة في الدول الأنجلوسكسونية كانت تجعل ذلك مستحيلاً. وفي أعقاب معسكرات الإبادة النازية صارت فكرة أن مستقبل فلسطين يهودياً أمر مضمون.

وخلال مناقشات الجمعية العامة للأمم المتحدة حول فلسطين عام ١٩٤٧م، وقع حادث له دلالاته. ففي الوقت الذي كان يجري فيه التصويت على تقسيم فلسطين؛ قُدم مشروع قرار آخر يدعو كل الدول الأعضاء للسماح لليهود بالدخول إليها حسب حصص معينة. ولم يكن مفاجئاً أن يهزم هذا القرار بعد فشل مؤتمر إيثيان وپرمودا، فقد قامت الدول التي صوتت إلى جانب التقسيم بالتصويت ضد قرار الهجرة اليهودية أو الامتناع عن التصويت. أما الدول التي كانت قد صوتت ضد تقسيم فلسطين وضد الصهيونية فإنها صوتت الآن إلى جانب حصص نسبية (كوتا) أعلى للهجرة اليهودية إلى الدول الغربية، وعبرت عن رغبتها في استقبال المزيد من المهاجرين اليهود^(٣٣).

الصهيونية وسياسة التمييز العنصري

إن التشابه بين الصهيونية وسياسة التمييز العنصري في جنوب إفريقيا يكمن في احتكام كل منهما لتأثير «حضاري» نابع من المبادئ التوراتية. فالكنيسة الإصلاحية الألمانية، وهي كنيسة المستوطنين الذين هم من أصل أوروبي في إفريقيا، تعتمد على فقرات من العهد القديم؛ لتظهر أن عدم المساواة بين الأجناس أمر كتبه الله. ويعتبر مواطنو إفريقيا سلالات حام الدنيا بينما يعتبر المستوطنون البيض أنفسهم سلالات سام الذين ينبغي عليهم أن يُحَضَّرُوا هؤلاء السود^(٣٤).

وتعتمد الصهيونية كذلك على فقرات العهد القديم لتبرر الادعاء اليهودى بحق تملك فلسطين واستعمارها، فاليهود وحدهم هم القادرون على إعادة «الحضارة» إلى فلسطين التي يطالبون بها كحق لهم طبقاً للنبوءات التوراتية .

وقد تجلت العلاقة الوثيقة المتبادلة بين الصهيونية والتمييز العنصرى فى إيمان الجنرال چان كريستيان سمتس الراسخ بالصهيونية وافتتانه بها «لم ينبثق عن دوره كوكيل للوجود البريطانى الاستعمارى فحسب، بل من لاهوت قومه الأفريكانيين»^(*) العنصرى الذى تم تفسيره بشكل غير صحيح^(٣٥) . وصهيونيته نابعة من خلفيته الشخصية ومفهومه عن الحضارة الغربية التى حورتها معتقداته الدينية الكالفنية، ولقد كانت صداقته للزعيم الصهيونى حاييم وايزمان نتيجة لصهيونيته وليست سبباً لها .

كان موقف سمتس من الصهيونية نتيجة طبيعية لإيمانه بالدور التاريخى المهيمن للحضارة الغربية، ومكان اليهود باعتبارهم حملتها وحمايتها . وكانت الحضارة فى نظره هى «الحضارة البيضاء»، وكانت وحدة البيض ضرورة مطلقة ولا مجال فيها للاسامية الغربية التقليدية . وكان اليهود حسب فلسفة سمتس فى عداد البيض، بينما كان العرب فى عداد السود . وكان الأساس الروحى لهذه المعادلة العنصرية هو اعتقاده أن خلفية كل من اليهود وشعبه فى جنوب إفريقيا واحدة .

إن لهما الخصائص نفسها، فكلاهما شعب عنيف شديد متدين جداً، وحياة كل منهما مبنية على الدين الذى تلقياه من كتاب واحد وهو العهد القديم . . . إنهم الشعب المختار - كما يشعر الألمان أنهم الشعب المختار - الذى اختاره الله نفسه وفضله على الآخرين . وكل يهودى يدرك أنه اختير خصيصاً ليكون يهودياً^(٣٦) .

وكان سمتس يبرز فى مناسبات كثيرة الارتباط الروحى بين البيض فى جنوب إفريقيا واليهود فى فلسطين، وفى خطاب ألقاه عام ١٩١٩م أمام حشد من الصهيونيين قال :

لاداعى لتذكيركم بأن البيض فى جنوب إفريقيا، وبخاصة

(*) الأفريكانيون هم الهولنديون والفرنسيون البروتستانت الذين هاجروا واستعمروا جنوب إفريقيا .

المستوطنون الألمان المسنون، قد نشئوا على التعاليم اليهودية . لقد كان العهد القديم، وهو أروع أدب أنتجه عقل الإنسان، أساس الثقافة الألمانية فى جنوب إفريقيا^(٣٧) .

ولم يكن سمّس، بتصنيفه العرقى إلى بيض وسود، يبدي أى احترام للعرب كشعب، ولا لوضعهم فى فلسطين، شأنه فى ذلك شأن غيره من الصهيونيين غير اليهود . وتصف كاتبة سيرة حياته سارة جيرترود ملن، وهى يهودية من جنوب إفريقيا، موقفه المتعالى هذا :

أما العرب، فلا يبدو العربى البدوى غريباً عن المواطن الإفريقى كما هو بالنسبة للأوروبى ؛ لأن الإفريقى يعرف الشعوب سود البشرة جيداً - وهى شعوب تشبه العرب فعلاً - لأن الدم العربى موجود فيهم^(٣٨) .

أما الشعب اليهودى، الذى اعتاد سمّس أن يشير إليه باسم «الشعب الصغير» فإن له رسالة تحضير فى العالم لا يعلى عليها^(٣٩)، والشعب اليهودى، فوق ذلك كله، منبع الحضارة الغربية وله يدين الغرب بوجوده وعليه أن يوقظ الشرق الأوسط «الذى انقضت قرون على نومه» ويقوده «على دروب التقدم»^(٤٠) .

وقد كشف موقف سمّس من الهجرة اليهودية إلى جنوب إفريقيا خلال العهد النازى أن الصهيونية واللاسامية متعاظدتان . ففى أثناء نقاش برلمانى عام ١٩٤٧م حول مسألة الهجرة الأجنبية، اقترح السيد كتردج، أحد أعضاء وفد جنوب إفريقيا، أن تكون قوانين الهجرة إلى جنوب إفريقيا أكثر تسامحاً بحيث تتيح لعدد أكبر من اليهود دخولها، فاعترض سمّس على هذا الطلب «الإنسانى» لأسباب صهيونية محتجاً بأن الهجرة اليهودية المتزايدة إلى جنوب إفريقيا لن تحل المشكلة اليهودية ولكنها ستخلق عداءً للسامية فقط . واقترح سمّس أن تركز جنوب إفريقيا جهودها للمساعدة فى إقامة وطن قومى يهودى فى فلسطين كحل للمشكلة اليهودية .

توجت الأسس النظرية المشتركة للصهيونية والتمييز العنصرى بالعلاقة الخاصة التى قامت فيما بعد بين حكومة إسرائيل والنظام العنصرى فى جنوب إفريقيا، واستمرت

الروابط الشاملة بينهما منذ عام ١٩٤٨ م على جميع المستويات السياسية والاقتصادية والعسكرية متحدة القوانين الدولية وإدانات التمييز العنصرى . وكانت حكومة جنوب إفريقيا برئاسة سمتس من أولى الدول التي اعترفت بدولة إسرائيل فى ١٤ مايو عام ١٩٤٨ م . وعقب ذلك بيومين ، هزم حزب دانيال إف . مالان الوطنى سمتس فى الانتخابات العامة ، ولكن وصول مالان للرئاسة لم يؤثر على تعاون الصهيونية مع جنوب إفريقيا^(٤١) .

كانت مشاعر مالان مزيجاً من اللاسامية والصهيونية ، ف (مالان) هو نفسه الذى قدم عام ١٩٣٠ م مشروع قانون (الكوتا) الذى يحد الهجرة اليهودية من أوروبا الشرقية . وكانت سياسات حزبه الوطنى المعادية لليهودية تقارب اللاسامية العنيفة ، وكان معروفاً عنه موالاته لهتلر وتعاونه مع النازية . ورغم هذا السجل الطويل من اللاسامية ، وجد الحزب الوطنى سبباً لتعديل سياسته اللاسامية العلنية على الأقل فى الوقت الذى أوشك هدف الحركة الصهيونية السياسية - وهو خلق دولة يهودية فى فلسطين - أن يصبح حقيقة^(٤٢) . وكانت الحكومة الوطنية برئاسة مالان هى التى اعترفت بشكل شرعى بالدولة اليهودية بعد الانتصار الهزيل الذى حققته على سمتس فى ٢٦ مايو عام ١٩٤٨ م ، وكان التحالف الذى قام بين إسرائيل الصهيونية وجنوب إفريقيا العنصرية هو النتيجة الطبيعية لفلسفتيهما السياسية العنصرية المشتركة . وكان الامتياز الذى منحه مالان للدولة الجديدة يعنى أنه يؤكد أن الإحساس العرقى لليهود سيجعلهم «يفهمون ويحترمون مشاعر كل قطاع فى المجتمع غيرهم»^(٤٣) . وقد أبدى الدكتور لسلى روبين ، أحد مواطنى جنوب إفريقيا المبعدين وأحد مؤسسى حزب الأحرار ، الملاحظة الماكرة التالية :

كان هناك شعور بالصلة مع الإسرائيليين فى التخلص من النير البريطانى . وقد يصف عالم النفس ذلك بأنه إعجاب بما أنجزه الآخرون وما يعتبر بالنسبة لهم رغبة مكبوتة . كما أن كثيراً من أعضاء الحزب الوطنى - وهذه وجهة نظر واحد من زعماء الفكر الأفريكانيين - رأوا أن انتصار اليهود على العرب هو انتصار لليبيض على غيرهم . وقد عبر مالان ، والذى كان قد تقدم به العمر ، عن حماسه لإعادة اليهود إلى وطنهم القديم طبقاً للنبوءة التوراتية^(٤٤) .

وتعكر صفو العلاقات الطيبة بين إسرائيل وجنوب إفريقيا فيما بين يوليو عام ١٩٦١م، ويونيو عام ١٩٦٧م؛ بسبب تصويت إسرائيل في الجمعية العامة للأمم المتحدة إلى جانب قرار يدين سياسة التمييز العنصرى فى جنوب إفريقيا، وكان هدفها من ذلك هو تهدئة دول إفريقيا السوداء التى كانت تسعى إلى كسب رضاها آنذاك. وقد كشف رئيس وزراء جنوب إفريقيا «هندرك ف. فيرود» عن زيف الإدانة الإسرائيلية للتمييز العنصرى بإبراز التتابع بين الصهيونية والنظام العنصرى «لقد أخذ الصهيونيون إسرائيل من العرب بعد أن عاشوا فيها ألف عام... إن إسرائيل دولة عنصرية كجنوب إفريقيا»^(٤٥).

وكان دعاة التمييز العنصرى فى جنوب إفريقيا يدركون وحدة المصير التى تربط مستقبل جنوب إفريقيا بإسرائيل، كما أكدت ذلك صحيفة الحزب الوطنى الرسمية «دى بيرجر - Die Burger» :

لإسرائيل وجنوب إفريقيا مصير مشترك، فكلاهما مشغول بالصراع من أجل بقائه، وكلاهما فى صراع دائم مع الأكثرية الحاسمة فى الأمم المتحدة. إنهما يعتمدان على القوة فى منطقة لولاها لوقعت فوضى مناهضة للغرب. ومن مصلحة جنوب إفريقيا أن تنجح إسرائيل فى احتواء أعدائها الذين يعدون من أشر الأعداء. وإذا ما أغلقت الملاحه حول رأس الرجاء الصالح بسبب تقويض سيطرة جنوب إفريقيا فإن إسرائيل ستثير كل العالم ضد ذلك^(٤٦).

كانت النكسة التى أصابت العلاقات الرسمية بين الحكومتين نتيجة إدانة إسرائيل اللفظية لسياسة التمييز العنصرى عام ١٩٦١م قصيرة الأجل. ففى أعقاب الحرب العربية الإسرائيلية عام ١٩٦٧م، عادت العلاقات الحميمة والعلنية بين الدولة اليهودية وجنوب إفريقيا واتسع نطاق العلاقات السياسية الأيديولوجية والاقتصادية والعسكرية بين الطرفين. وفى عام ١٩٧٣م، أذان المجتمع الدولى لأول مرة «التحالف غير المقدس بين الاستعمار البرتغالى والعنصرية فى جنوب إفريقيا، والصهيونية والاستعمار الإسرائيلى»^(٤٧).



هوامش الفصل السادس

Bernard Lewis, The Anti - Zionisti Resolution, Foreign Affairs Vol. 55, No 1, Oc- (١)
tober 1976, p. 55.

The Diaries of Theodor Herzl (New York, 1956). (٢)

Arnold Toynbee, the Study of History (New York, 1956). (٣)

Richard Meinertzhagen, Middle East Diary 1917 - 1956 (London 1959), p. 67.(٤)

(٥) المصدر السابق، ص ٤٩ .

(٦) المصدر السابق، ص ٢٠٣ .

(٧) هرتزل، المصدر السابق، مجلد ١، ص ٨٤ .

(٨) انظر كتابه Krisis und Entscheidung in Judentum (Berlin 1921, pp. 188,62.

(٩) ماينرتزهاجن، المصدر السابق، ص ١٨٣

(١٠) المصدر السابق، ص ٨١ .

(١١) المصدر السابق، ص ١٧ .

(١٢) المصدر السابق، ص ١٢ .

(١٣) المصدر السابق، ص ١٦١، ص ١٦٧ .

(١٤) حديث السناتور لودج عام ١٩٢٢م، في بوسطن. New Palestine Vol, 2, 1922, p. 330.

(١٥) كلارك كليفورد لترومان، ٦ مارس ١٩٤٨، أوراق كلارك كليفورد، مكتبة ترومان، صندوق

١٣، ص ١٠ - ١١ .

(١٦) المصدر السابق، صندوق ١٤ «ملخص الاقتراحات للسياسة الأمريكية في فلسطين» .

(١٧) تيودور هرتزل، الدولة اليهودية (لندن، ١٩٣٤م) .

(١٨) بريطانيا العظمى، مكتب السجل العام و ٢٤ / ٢٤ / ٢٣ أغسطس ١٩١٧م .

(١٩) مجلس العموم، ١٠ يوليو ١٩٠٥م. O. R.م مجموعة ١٥٥ ومجلس العموم، ٢ مايو ١٩٠٥م،

David V. Lipman, Social History of the Jews in O. R مجموعة ٧٩٥ . انظر كذلك

England (London, 1954), p. 141 ff.

(٢٠) بروتوكولات، المؤتمر الصهيوني السابع، ١٩٠٥، ص ٨٥ .

(٢١) كما ورد Leonard Stein, The Balfour Declaration (London, 1961). p. 143.

(٢٢) المصدر السابق .

- (٢٣) إيرل أكسفورد وأسكوث، «ذكريات وتأملات» (لندن، ١٩٢٨م)، مجلد ٢، ص ٦٥.
- (٢٤) شتاين، المصدر السابق، ٢٧٤.
- Nahum Sokolow. The History of Zionism, (London, 1919, 2.p.xxi). (٢٥)
- (٢٦) في كتابه «أمريكا وفلسطين» (نيويورك، ١٩٤٥م) ص ٣١ وصف روبن فنك هاوس بأنه صديق مخلص للصهيونية. أما أدلر Selig Adler فيصفه بأنه «ليس معادياً للصهيونية فحسب، ولكنه لا سامى كذلك». انظر، The Palestine Question In The Wilson Era, Journal of Jewish Social Studies, Vol 10, No. 4. 1948, p. 306.
- (٢٧) كما ورد William E. Doff, Jr, and Marha Dodd (eds) Ambassador Dodd's Diary (New York, 1941). p. 10.
- (٢٨) كما ورد في ص ١٥٢ من المصدر السابق لماينرتزهاجن الذى أجرى ثلاثة لقاءات مع هتلر و«روبتروپ - Ribbentrop»، وزير الخارجية الألماني، فيما بين عامى ١٩٣٤ و ١٩٣٩م، وكان موضوع الصهيونية يبحث فى كل مرة.
- (٢٩) المصدر السابق، ص ١٥٢ و ١٥٨.
- (٣٠) المصدر السابق.
- (٣١) يعتبر كتاب إلياهو بن اليسار (Paris, 1969) La Diplomatie du IIIe Reich et les Juifs واحداً من أكمل الدراسات الموثقة والموثوقة عن التحالف النازى الصهيونى.
- (٣٢) المصدر السابق، وكذلك: Klaus Polkehn' Secret Contacts Zionist Nazi Relations : 1933 - 1941 مجلة الدراسات الفلسطينية. مجلد ٥، رقم ٤/٣ ربيع/ صيف ١٩٦٧م ص ٥٤ - ٨٢: يبحث المؤلف أصول وعلاقات اتفاقية هافارا التى عقدت عام ١٩٣٣م، والتي قاومت الهجرة اليهودية إلى فلسطين بواردات البضائع الألمانية إليها فى وقت كانت الدول الغربية تحاول مقاطعة ألمانيا النازية اقتصادياً.
- (٣٣) سجلات الأمم المتحدة، الجلسة ١٢٧ للجمعية العامة، ٢٨ نوفمبر ١٩٤٧م.
- (٣٤) للاطلاع على دراسة مفصلة للأساس الأيديولوجى للتفرقة العنصرية فى جنوب إفريقيا انظر: جورج جوبور «الاستعمار الاستيطانى فى جنوب إفريقيا والشرق الأوسط» (بيروت، ١٩٧٠م).
- (٣٥) Richard P. Stevens, Israel and Africa, in Zionism and Racism (Tripoli, 1977), p. 165.
- (٣٦) H.C. Armstrong, Grey Steel: J. C. Smuts, A study in Arrogance (London, 1937), p. 330.
- (٣٧) كما ورد فى Richard P. Stevens, Weizamann and Smuts, A Study in Zionist - South African Cooperation (Beirut, 1975) p. 33.
- (٣٨) Sarah Gertude Millin, General Smuts (London, 1936), Vol, 2, 122 - 13.
- (٣٩) كما ورد فى ص ٤٨٣ من كتاب Stein السابق:
- (٤٠) انظر كتاب ستيفنس «وايزمان وسمتس» السابق، ص ١١٢.

South African Zionist Record April 1947. (٤١)

Richard G. Weisbord, Dilemma of South African Jewry Journal of Modern African Studies, Vol. 5, September 1967, p. 239.

(٤٣) المصدر السابق، ص ٢٣٦.

Leslie Rubin Afrikaaner Nationalism and the Jews, Africa South, Vol. 1, No. 3. (٤٤)
April - June 1957, p. 2.

Rand Daily Mail, 21 November 1961. (٤٥)

Die Burger, Cape Province, 29 May 1968. (٤٦)

(٤٧) قرار الجمعية العامة رقم ٣١٥١ (ج ٢٨) في ١٤ ديسمبر ١٩٧٣ م. انظر كذلك «تقرير عن العلاقات بين إسرائيل وجنوب إفريقيا» الذي تبنته لجنة الأمم المتحدة الخاصة بالتمييز العنصري في ١٩ أغسطس ١٩٧٦ م.

* * *